مجلة الباحث – المدرسة العليا للأساتذة الشيخ العلامة مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري – بوزريعة – الجزائر

المجلد: (15)	العدد:(01)	السنة: 2023	صفحات المقال: 160 –178	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

الدّرس التّداولي
بين التنظير الغربي والتفكير العربي القديم

Pragmatics course
between western theorizing and ancient Arab thinking

دلال أوبيش (طالبة دكتوراه علوم)
المدرسة العليا للأساتذة الشيخ العلامة مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري – بوزريعة (الجزائر)
litissya.rose@gmail.com

أ.د. شفيقة العلوي
المدرسة العليا للأساتذة الشيخ العلامة مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري – بوزريعة (الجزائر)
laloui.chafika@ensb.dz

تاريخ الإرسال: 13 / 02 / 2023 تاريخ القبول: 14 / 02 / 2023 تاريخ النشر: 31 / 03 / 2023

الملخص:

اللغة وعاء للفكر وأداة أساسية للاتصال والتواصل، حيث يعكس الرّكام المعرفي اللساني انشغال الدّارسين بالمادة اللغويّة منذ زمن بعيد فجعلوا منها منطلق بحثهم وهدفهم في الوقت نفسه، وقد كشف الدّرس اللغوي في كلّ مراحل تطوّره –وصولا إلى اللسانيات التداولية واللسانيات العرفانية – عن فكر ناضج خلفيته الإبستيمولوجية – من الجانب التنظيري– غربية دون منازع. وعلى خطى الباحثين الغربيين وفي كنف المقاربات اللسانية الغربية ترعرت بنات النظريات اللسانية العربية الحديثة. لكن هذا لا ينزل من شأن المنجز اللغوي العربي القديم والذي أسهم في منح الدّرس اللساني الحديث بشقيه العربي والغربي طابع العلمية والعالمية الذي هو عليه اليوم؛ ذلك لأنّ العرب في عصر مضى جعلوا أعمالهم وبنات أفكارهم اللغوية وسيلة يُقعدون بها لفهم علوم أخرى لا غاية يقعدون لها. وهو ما رصده هذا المقال بعد استقراء بعض مباحث الدّرس التداولي الحديث: "الحجاج، أفعال الكلام والسّياق " في التراث اللغوي العربي. ورغم أنّ هذا المنجز التراثي تضمّن إشارات وأفكار غنيّة بالقيّم التداولية إلّا أنّها لم تأخذ صفة النظريات اللسانية بالنضج والتكامل الذي تعرفه اليوم.

الكلمات المفتاحية:

التّداولية؛ التراث اللغوي العربي؛ الحجاج؛ أفعال الكلام؛ السّياق.

المجلد: (15)	العدد:(01)	السنة: 2023	صفحات المقال: 160 –178	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

Abstract :

Language is a vessel of thought and an essential tool of contact and communication. Communication, as cognitive accumulation reflects the preoccupation of scholars with linguistics material since a long time ago. Besides, they made of it the starting point of Both their research and objective.

And the linguistics course in all its development stages_ up to pragmatic linguistics and cognitive linguistics_ has shown a mature thought with epistemology background, from the theoretical side, unquestionably western.

In the footsteps of western researchers and within the western linguistic approaches, the origin of Modern Arabic linguistic theories has grown up. However, this doesn't detract from the old Arabic linguistic achievement, which contributed to giving the modern linguistic course, in both its Arabic and Western parts, the present scientific and global character.

This is mainly because the Arabs in the past era, made their linguistic works and their own ideas a means and a way to undetstand other sciences but not a target to which they sat.This is what this article has monitored after examining few topics of modern pragmatics course: "argumentation, speech acts, context" in arabic linguistic heritage.Although this heritage achievement included references and ideas rich in pragmatic values, it didn't take on the characteristics of linguistic theories with maturity and integration known today.

Keywords:

Pragmatis; Arabic linguistic heritage; Argumentation; Speech acts; Context.

1. مقدمة:

عرف الدّرس اللغوي منذ منتصف تسعينات القرن الماضي نقطة تحوّل جدّية ومهمّة تتمثل في " لسانيات النّص " التي جعلت النصّ أرضية دراستها اللغوية – والنّص هو مؤسسة لسانية يحكمها نظام لغوي صارم تعكسه معايير نصية وخصوصية تداولية محدّدة المعالم – ، وفي حشد النظريات والمناهج اللغوية التي صاحبت الدراسة النّصية، كان للّسانيات التّداولية حصّة الأسد في الأبحاث النّصية والخطابية نظرا لميزتها التواصلية الاستعمالية . ولأنّ الدّرس التداولي حجز مكانا مهّما في الحقل اللساني الغربي الحديث حاولنا من خلال هذا المقال الكشف عن بعض آلياته في الفكر العربي التراثي عبر دراسة وصفية استقرائية مقارنة لـــ: الحجاج، أفعال الكلام والسّياق، والتي افترضنا تحقيق وجودها في التراث إمّا كنظريات متكاملة أو كإشارات محتشمة، أو كأفكار ناضجة تم استعمالها لإثبات نظريات أخرى. وبين هذا وذاك كان الهدف من المقال ذو شقّين، أولهما: الوقوف عند حدود القيمة الفكرية التراثية للعلماء العرب في المجال اللغوي بوجه عام والتّداولي

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

بوجه خاص، وثانيهما: حثّ الباحثين اللسانيين العرب على الانطلاق من تراثهم لاكتشاف نظريات لسانية قد تضاهي موسوعية النظريات اللسانية الغربية في دقّتها ووظيفيتها.

2. التّداولية بين الفكر العربي والمنطلق الغربي

1.2 الخطاب التّداولي:

اختلفت مصادر التنقيب عن أيّة إشارة أو فكرة تومئ بوجود درس لساني تداولي في الفكر العربي القديم، وقد لوحظ توجّه الباحثين أثناء عملية البحث عن ملامح النظريات الغربية في التراث العربي إلى المصادر الآتية: **التّفسير وعلوم القرآن، مباحث النّحو، البلاغة والنّقد الأدبي.**

ارتبط الحقل التداولي بالخطاب أشدّ ارتباط، والخطاب هو "**حدث تواصلي حقيقي أداته اللغة أو هو بصورة أكثر عمومية أيّ سلوك علاميّ يحمل معنى** " [1] وقد اختلف الباحثون في التمييز بين النّص والخطاب، وذهب آخرون إلى اعتبارهما بنية لغوية واحدة لا فرق بينهما، ولكن يمكن أن نستأنس في التمييز بينهما (بين النّص والخطاب) من خلال معادلة "**جان ميشال آدم** الشهيرة: "

النّص + ظروف الإنتاج = خطاب

الخطاب – ظروف الإنتاج = نّص[2]

أمّا بالنسبة لمجال **تحليل الخطاب** فهو حسب "**محمود طلحة**" : نظر في تركيب لسانيّ منسجم له علاقة وثيقة بالنظر في السّياق التواصلي لهذا التركيب مع التّركيز على حمولته الدّلالية والمضمونية، إضافة إلى تحليل نوعه وشكله وكيفيّات تفاعله مع التركيبة الاجتماعية والثقافية التي أحاطت به " [3] ، ويمكن تلخيص الخطاب التداولي ومجال تحليله في المخطط الآتي:

المجلد: (15)	العدد:(01)	السنة: 2023	صفحات المقال: 160 –178	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

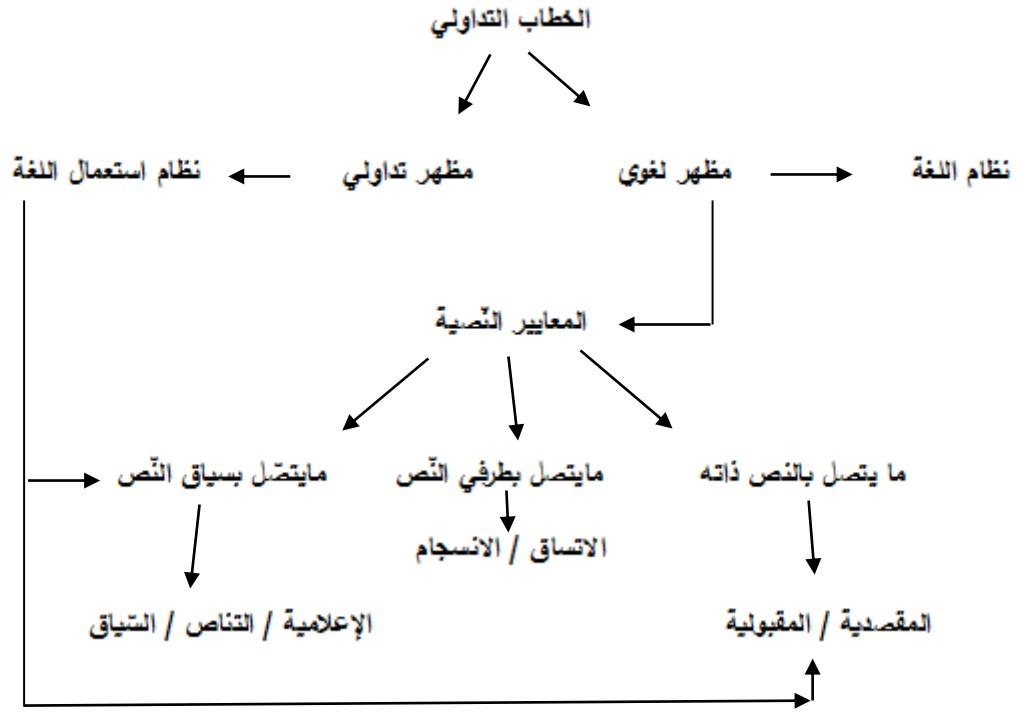

2.2 الجهاز الكرونولوجي للتداولية بين الحداثة والتراث:

تعود نشأة مصطلح التداولية Pragmatics بمفهومها الحديث إلى الأمريكي **تشارلز موريس** " سنة **1938**م في ظلّ الاهتمام المتزايد بالتواصل، ويطلق عليها النظرية التواصلية كذلك؛ والتّداولية: " تدرس كل أنواع النصوص وتعنى بالعلاقة بين المتكلّم والمتلقي، وبدراسة المعنى وحال التلفظ به متلبسا بظروف السّياق والاستعمال، وليس بمعناه الدلالي المجرّد، وهو ما جعل بعض الباحثين ينظر إلى التداولية على أنها منهج سياقي يدرس فاعلية اللغة في التواصل"[4] ولا يزال الدّرس التداولي حديثا في المجال اللغوي يشرئّب من مختلف المعارف والعلوم الأخرى لتكوين نظرية متكاملة وعلى قدر كاف من النضج، إذ يضيف **مسعود صحراوي** في هذا الصدد: " والدّرس التداولي درس جديد لا

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

يزال غضًّا وحيوياً يمدّ ساحة الدّراسات اللغويّة والمعرفيّة بأفكار ومفاهيم ورؤى جديدة " [5].

وقد استقرّت التداولية مجالا يعتدّ به في العقد السابع من القرن العشرين حيث تطوّرت على يد **فلاسفة أكسفورد** الذي يقولون: "**اسأل عن الاستعمال ولا تسأل عن المعنى**" وعلى رأسهم: **أوستين، سيرل وغرايس**" والذين يؤكدون في أبحاثهم على البعد النفعي البراغماتي للّغة وعلى أنّ تحليل الوحدة اللغوية يستدعي وضعها في سياق انتاجها، فالاستعمال – حسبهم– كفيل بأن يفضي إلى نتائج مهمّة تسهم في تطوير نظريتهم وباقي النظريات اللسانية.

ولعلّ أهم ما يميّز الدّرس اللغوي العربي القديم أنّه يقوم على دراسة اللغة أثناء الاستعمال منذ بدايته، وهو ما أكّد عليه **السّيوطي** عندما قال: " إنّما اللغة تؤخذ استعمالا لا قاعدة " [6]، وجعل مخرج كتابه " الاقتراح في علم أصول النحو " أنّ ما نطقت به العرب يجب الاعتداد به واعتباره الأصل في كلّ ظاهرة، حيث يقول: "إذا أتاك القياس إلى شيء ما، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره، فدع ما كنت عليه " [7]، وهذا يدلّ على قيمة الاستعمال وما تتداوله العرب في اللغة. ويقصد بوجه الاستعمال في هذا المقام: حالة المتكلم النفسية، ظروف التواصل، الحركة، الصّمت، علاقة المتكلّم بالسّامع ...الخ).

ولم يتناول النحويّون القدامى البنية اللغوية بمنأى عن مهمتها التواصلية وأحوال استعمالها في دراستهم، ذلك أنّ اللغة وهي موضوع النّحو تقوم على مفاهيم الاستعمال والتداول والتواصل مثلما هو الحال في تعريفها عند " **حازم القرطاجني (ت 684ه)** الذي ركّز على عنصرين أساسيين تقوم على أساسهما اللغة هما: التواصل والمنفعة حيث يقول: "لمّا كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجهم إلى بعضهم على تحصيل المنافع وإزاحة المضار وإلى استفادتهم حقائق الأمور وإفادتها، وجب على المتكلم أن يبتغي إمّا إفادة المخاطب وإمّا الاستفادة منه " [8].

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

فالكلام وحده كفيل بعرض حاجات الناس وتأدية مقاصدهم ورصد ما يتّم تداوله بينهم، إذ يقول **ابن جني (ت 392هـ)** في تعريفه للغة: " وحدّها أنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"[9]، وأغراض ومقاصد المتكلمين هي من صلب الدّرس اللساني التداولي الحديث.

وبالنظر إلى التداولية كفكرة تواصلية في تراثنا العربي، نجد أنّ دراسة عملية التّواصل والاتصال قديمة، إذ تمتد جذورها إلى الدّراسات التي قام بها علماؤنا الأجلاء أمثال: **الجاحظ، وأبي هلال العسكري**، و**ابن قتيبة، وحازم القرطاجنّي، السكّاكي** وغيرهم، إلا أنّها تميّزت بالطّابع المعياري، وتركيزها على الشّروط التي تجعل من الخطاب خطابا ناجعاً، الأمر الذي جعلها تحمل في طيّاتها ملامح التداوليّة الحديثة، فكما ركّز هؤلاء البلاغيون على المرسل والمتلقي، والرّسالة وعمليّة التّأثير والتّأثر، والقصد، ونوايا المتكلّم، والفائدة من الكلام والإفهام... إلخ، ركّز علماء التّداولية المحدثون عليها، مما يؤكّد على وجود **نقاط تقاطع** بين البلاغة والتّداوليّة، وعن هذا يقول **جمال حضري**: «يرتبط البعد التّداولي بمصادر البلاغة القديمة على منظور المخاطِب باعتباره مناطَ تحقيق النّجاعة للخطاب وتولّدت عن ذلك جملة من الشّروط المطلوب توفّرها في المتكلّم كمبلغٍ وفي الخطاب كبلاغٍ له، والمنبت النّفعي يبرز هذا التّركيز، فقبل أن تتحوّل البلاغة إلى علم تحسيني لغوي كانت علماً للخطاب الشّفاهي يعنى بملاءمة الخطاب للمقام ثمّ أصبحت بحثاً في ملاءمة الشّكل للموضوع، وبهذا الاعتبار لم تكن المقاربة التّداولية غريبة عن البلاغة قبل تحوّلها، وقد كانت العناية بتكوين الخطيب وثقافته – وهو بعد تداولي– من اهتمامات البلاغة الخطابية، والبيان والتبيين للجاحظ حافل بهذا الاهتمام» [10].

في ضوء هذا، نخلص إلى أنّ التداولية مبحث بلاغيّ بالدّرجة الأولى في تراثنا العربي لكن هذا المبحث لم يستقل بذاته، بل خدم مباحث أخرى مستقلة نظّر علماؤنا لها، ولم يكن للدّرس التداولي نصيب في التنظير رغم الإشارة إليه ضمن أعمالهم.

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

3. الدّرس التداولي بين المحدثين والعرب القدامى:

1.3 الحجاج مبحث تداولي غربي جديد و شكل بلاغي عربي قديم:

تحيل مختلف التعاريف الاصطلاحية إلى أنّ **الحجاج** عبارة عن علاقة تخاطبية بين المرسل والمرسل إليه حيال قضية يحاول المرسل دعم رأيه فيها بأدّلة وبراهين لإقناع المرسل إليه، ولهذا الأخير حق الاعتراض، وهذا يحيلنا إلى تعريف "**طه عبد الرحمن** " الذي يقول فيه: " الحجاج كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها" [11]. كما يرى أنّ: "الحجاج فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأنّ طابعه الفكري مقامي واجتماعي وهو أيضا جدلي لأنّ هدفه إقناعي" [12]، فالحجاج أحد أهّم مباحث التّداولية اليوم ويعتبر أهّم أدوات الاستراتيجية الإقناعية [13]، وقد لقي نصيبا جديّا من البحث والدراسة على يد كل من " **شاييم بيرلمان وتيتكاه، أوزفالد ديكرو وأنسكومبر، ماييير** ...الخ)" من خلال بعثه في نسخة مستحدثة مع تغييرات جزئية تحت مسمى: " **البلاغة الجديدة** ".

ولما كان الحجاج مرتبطا بالبلاغة فقد لقي اهتماما واسعا عند البلاغيين العرب القدامى بالمفهوم والمصطلح في كثير من الأحيان حيث: " **هناك من يرى أن الحجاج كان مبحثا معتبرا في البلاغة العربية القديمة (دراسة وممارسة)، بل إنّ البلاغة عند البلاغيين العرب هي الإقناع** " [14] ، فالبلاغة العربية منذ القدم ظلّ يتجاذبها جانبان مهّمان هما: الإمتاع والإقناع ؛ والإقناع في أبرز تمثّلاته هو وجه الحجاج وغايته.

وعن **الجاحظ (255ه)** أنّ **ابن المقفع (ت142ه)** لما سُئل: " ما البلاغة؟ أجاب بقوله: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ...ومنها ما يكون سجعا وخطبا..." [15]، جمع الكاتب بتعريفه هذا وجوه البلاغة اللفظية وغير اللفظية، وجعل الحجاج وجها من وجوه البلاغة. وأورد **الجاحظ (ت 255ه)** كذلك مفهوما للبلاغة عند بعض أهل الهند قائلا: " جماع البلاغة البصر بالحجّة، والمعرفة بمواقع الحجّة " [16].

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

يعدّ الحجاج – إذاً – قاعدة الدّرس التداولي؛ لأنّه كفيل بتأدية مقاصد المتكلمين على الوجه الذي يؤثرون به في المتلقين وهو ما تفطّن له علماء العرب قديما حيث يقول **الجاحظ:** " أما بعد، يمكن إرجاع وظائف البيان اعتمادا على كلّ ما سبق إلى ثلاث وظائف أساسيّة هي: الوظيفة الإخبارية المعرفية، الوظيفة التأثيريّة، الوظيفة الحجاجيّة"[17] وكل هذه الوظائف من صميم الدّرس التداولي.

ويقول "محمّد العمري" **في الموضوع ذاته: «إن هذا البعد هو أحد الأبعاد الأساسية في البلاغة العربية، وهو بعد جاحظي في أساسه، وإنّ تخلي البديعيون عنه في مراحل لاحقة أدّى إلى اختزال البلاغة العربية وتضييق مجالها، وتحظى نظرية التّأثير والمقام حالياً بعناية كبيرة في الدّراسات السيميائية، ومن ثمّ الشّروع في إعادة الاعتبار إلى البلاغة العربية تحت عنوان جديد هو"التداولية".**[18] **إنّ** محمّد العمري من خلال تعريفه هذا يجزم ويعترف بأسبقية علمائنا العرب إلى التّداولية وعلى رأسهم الجاحظ الذي اعتنى بفكرة المقام ومراعاة حال المخاطَب، ومقاصد المتكلمين ، والحجاج خاصّة .

أمّا "**ابن وهب الكاتب**" **(ت335ه)** فقد جعل الحجاج مرادفاً لكلّ من الجدل والمجادلة، وهذا ما يتّضح من قوله الذي نجده في كتابه: "**البرهان في وجوه البيان**" فها هو يقول: «وأمّا الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجّة فيما اختلف المتجادلون، ويستعمل في المذاهب والدّيانات، وفي الحقوق والخصومات والتنصّل والاعتذارات» [19]، ويبدو من كلام "**ابن وهب**" أنّه جعل الحجاج مساوياً للجدل من حيث المعنى، كما فرّق بين نوعين من الجدل وهما الجدل المحمود والجدل المذموم، فها هو يقول: «فأمّا المحمود، فهو الذي يقصد به الحقّ، ويستعمل فيه الصّدق، وأمّا المذموم فما أريد به المماراة والغلبة، وطلب به الرّياء والسمعة» [20].

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

ورأى "**حازم القرطاجنّي (ت684ه)**" بأنّ الحِجاج هو وجهٌ من أوجه الكلام، فقال: «لمّا كان كلّ كلام يحتمل الصدق والكذب، إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال » [21] ، كما تحدّث عن الطّرق التي يتمّ بها إقناع الخصم، كالتمويهات والاستدراجات، وعدّهما من الاستراتيجيات المهمّة في عملية الإقناع، فقال: «التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من النّاس بالطّبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظّنون» [22].

كما تنبّه **البلاغيون** إلى حجاجية الاستعارة، وقدرتها على الاقناع، ولعلّ أوّل من ينبغي ذكره في هذا المضمار هو الشّيخ **عبد القاهرالجرجاني(ت471ه)**، باعتباره من الأوائل الذين أشاروا إلى هذا النّوع من الاستعارة وأفاضوا الحديث عنها، فها هو يقول في هذا الصّدد:" **ينبغي لكل ذي دينٍ وعقلٍ أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه ويستقصى التّأمل لما أودعناه، فإن علِم أنّهُ الطّريق إلى البيان، والكشف عن الحجّة والبرهان، تبع الحق وأخذ به، وإلاّ رأى أنّ له طريقاً غيره أومأ لنا إليه، ودلّنا عليه، وهيهات ذلك**" [23]

وقد صرّح **طه عبد الرّحمن** في مؤلّفه "**اللسان والميزان**" قائلاً: "إنّ أوّل من استخدم آليات حجاجية لوصف الاستعارة هو إمام البلاغيين العرب عبد القاهر الجرجاني، فقد أدخل مفهوم الادّعاء بمقتضياته التّداولية الثلاثة: "التّقرير "والتّحقيق" و"التّدليل"، كما استفاد في ثنايا أبحاثه من مفهوم التّعارض من غير أن يطرحه طرحاً إجرائياً صريحاً" [24]

إنّ هذه الأقوال التي تعزى إلى تفكير العرب القدامى إنّما تؤكّد على وجود الشكل الحجاجي عندهم كمصطلح ومفهوم وإن لم يعرف التطوّر الذي هو عليه اليوم في الدراسات الغربية.

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

2.3 نظرية أفعال الكلام وجذورها العربية:

تعدّ نظرية **أفعال الكلام** من أبرز النظريات اللغوية الاتصالية، ظهرت على يد كل من "**أوستين** " وتلميذه "**سيرل**" اللذين بلورا فكرة القيمة النفعية والقوة الإنجازية للوحدات اللغوية أثناء استعمالها، وقد أولى الدارسون أهمية بالغة لهذه النظرية حيث يقول "**فان دايك**": " وغني عن القول إنّ تحليلا سليما لأفعال الكلام هو الغرض الرئيس للتداولية لأنّه لا يمكن أن يتّم بغير فهم مسبق لمعنى الفعل أو التصرّف" [25]

وقد عرض "**أوستين** " في بداية تأسيسه لنظرية أفعال الكلام قسما جديدا تحت مسمى **(الأفعال الإنجازية)**. ولعلّ الفكرة نفسها نجدها حاضرة عند **ابن رشد (ت595ه)** الذي ربط الكلام بالفعل حيث يقول: " الكلام ليس شيئا أكثر من أن يفعل المتكلّم فعلا يدل به المخاطَب علم العلم الذي في نفسه، او يصير المخاطب بحيث ينكشف له ذلك العلم الذي في نفسه، وذلك فعل من جملة أفعال الفاعل " [26]

وقسّم **أوستين** في بداياته الجمل إلى وصفية (خبرية) وإنشائية مستعينا في هذا التقسيم على معياري الصدق والكذب، لكنّه سرعان ما أعاب هذا التقسيم وأعاده مستعينا بمعياري النجاح والإخفاق، فقسّم الفعل الكلامي إلى: فعل القول، الفعل المتضمن للقول، الفعل الناتج عن القول. [27]

ولعلّ هذا التّقسيم يأخذنا إلى باب **الخبر والإنشاء** في علم المعاني العربي ، حيث يميّز "**أبو يعقوب السّكاكي**" **(ت: 626هـ)** بين الخبر والإنشاء من خلال معيار الصّدق والكذّب فيقول: " يفترقان باللازم المشهور، وهو احتمال الصّدق والكذب " [28] ، وقال **المبرّد (ت: 268هـ)** في السياق نفسه : "الخبر ما جاز على قائله التصديق والتكذيب " [29].

المجلد: (15)	العدد:(01)	السنة: 2023	صفحات المقال: 160 –178	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

3.3 السّياق الغربي والمقام العربي:

السّياق: يعرّفه **جورج مونان:** "هو علامات شكليّة تكون في المحيط اللساني الفعلي" [30]، في حين يرى كل من "**غريماس** " **و** "**كورتيس**" أنّ السّياق هو مجموع الظروف التي تواكب وحدة تركيبية معيّنة وتكشف بها عن الدّلالة وعمّا يمكن أن يكون ضمنيّا " [31]

تفطّن اللساني الاجتماعي " **فيرث**" إلى أهميّة هذا العنصر في الدّرس اللغوي البنيوي فأسّس مايدعى بـــ: " النظرية السّياقية "، والتي تفسّر الظاهرة اللغوية بالاستناد إلى سياق إنتاجها، وجعله " **دي بوغراند**" معيارا نصّيا، ويعتبر عنصرا قارّا ومهمّا في الدّرس التّداولي، بل حتى أنّ بعض العلماء الغربيين كـــ" **ماكس بالاك** "أطلقوا على التداولية اسم " السياقية" واعتبروهما وجهان لعملة واحدة.

والسّياق نوعان، إذ يقول **فان دايك:** " السّياق يحمل دلالتين في مفهومه، أمّا الدّلالة الأولى فهي البنية اللغوية في اتصالها بما قبلها وبما بعدها، وهو ما نطلق عليه السّياق اللغوي أو المقالي، والدّلالة الثانية تتمثل في الظروف التي تحيط بالحدث اللغوي، وهذا ماندعوه بالسّياق غير اللغوي أو المقامي " [32]. فالسّياق بوجه عام: نوعان لغوي وغير لغوي؛ فأمّا السّياق غير اللغوي (السياق المقامي) هو الظروف والأحوال التي تصاحب إنشاء الخطاب المنطوق أو المكتوب، وهو يمثّل الفكرة التي عبّر عنها البلاغيون القدامى (لكلّ مقام مقال)، وأمّا السياق المقالي فهو حصيلة استعمال المفردات داخل حدود نظام الجملة، ويشتمل مستويات التحليل البنيوي: المستوى الصوتي، المستوى الصرفي، المستوى التركيبي والمستوى الدلالي.

وإذا تأملنا أعمال التراثيين لوجدنا المكتبة العربية زاخرة بهذا المبحث – السّياق–. فمن المفاهيم **التّداولية** التي تنبّه إليها **الجاحظ (ت 255ه)** أيضا وأعطاها أهميّة كبيرة قضية **المقام** ودوره في دورة التّخاطب يقول: «...يكون لفظك رشيقاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريبا معروفاً، إما عند الخاصّة إن كنتَ للخاصّة قصدت، وإما عند

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

العامّة إن كنت للعامّة أردتَ» [33]، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على أنّ من شروط الخطاب النّاجع أن يكون لكلّ مقامٍ مقال.

وهذا "**ابن رّشيق" (ت463ه)** في كتابه **العمدة** اهتّم بحال المخاطب ومراعاة مختلف ظروفه وأحواله إذ قال: " نجاعة الخطاب وفعله في المخاطب رهينان –إذاً– باستحضار المتكلّم لطبيعة المستمعين ومواقفهم وظروفهم ...فالقول المقنع لا يكون غافلا بل حاملا لانتظارات المتلقين " [34] ويقول **أبو هلال العسكري (ت: 395هـ)** في الصّدد ذاته: "واعلم أنّ المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل ّمقام من مقال، فإذا كنتَ متكلّماً أو احتجت إلى عمل خطبةٍ لبعض ما تصلح الخطب أو قصيدة لبعض ما يُراد له القصيد فتخطّ ألفاظ المتكلّمين مثل الجسم والعرض والكون والتّأليف والجوهر فإنّ ذلك هجنة» [35].

يُلاحظ من قول" **العسكري**" أنّه ربط المقام بتغيّر الغرض المنشود ومقصدية المتكلّم، فباختلاف الغرض المراد تحقّقه يختلف المقام، فإذا كانت خطبة غرضها الإقناع، كان الخطاب في هذه الحالة حجاجيا، أمّا إذا كان المقام شعرياً فغرضه يتمثّل في الاستمالة والإثارة ...الخ.

ولا يسعنا الحديث عن الدّرس اللغوي العربي القديم دون ربطه بعلم التفسير و أصول الفقه؛ ذلك لأنّ أغلب النحويين – قديما كانوا قرّاء – ومعظم البلاغيين استمدوا أساليبهم وشواهدهم من صلب الدراسات القرآنية ، فقد تمظهر جانب من السّياق عند الأصوليين من خلال إشارتهم إلى "**أسباب النزول**" والتي ارتبطت بمحتوى السورة القرآنية وكذا مكان نزولها ، مما يفيد بنزر ليس باليسير في التفسير القرآني . فا**بن قيّم الجوزية (751ه)** في حديثه عن أسباب النزول أي السياق المقامي قال: " السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعد احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوّع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدّالة على مراد المتكلّم " [36]

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

فرغم أنّ السياق هو مفهوم لغوي بالدرجة الأولى إلا أن علماء الأصول اهتموا به في ثنايا مباحثهم مثلما اهتموا بالكثير من القضايا اللغوية التي لها صلة بعلوم الشريعة، ولعلّ الأصوليين هم أسبق من غيرهم بما في ذلك علماء النص في الإشارة إلى هذا المفهوم (السّياق المقامي) أثناء استنباطهم للأحكام الشرعية من الكتاب والسنة.

هذه النماذج التراثية وغيرها تثبت أسبقية التفكير العربي في منح المقام (السياق غير اللغوي) نصيبا مهما من البحث والتنقيب، بل واعتماده كأداة لكشف المعاني الكامنة في النّصوص وفتح مغاليقها.

4. خاتمة:

شغلت إشكالية التراث والحداثة اهتمام المفكرين العرب المعاصرين ، إذ بدأت تطفو على سطح البحث اللساني العربي منذ أن بدأ اللغويّون المحدثون إدخال نظريات غربية ومحاولة تطبيقها على نصوص عربية. هذا وامتدّ الوعي العربي بشكل عام واللساني بشكل خاص بنحو طبيعي إلى تحليل الخطاب ومنهجه التّداولي الذي انبثق في الأصل كنظرية ناضجة من الحوض المعرفي الغربي، ولعلّ فكرة التأصيل للسانيات التّداولية في التراث العربي القديم لهي محاولة جادّة تطمح لعدم تغييب التراث بل والرفع من شأنه والتأكيد على أهميته في نشأة النظريات اللسانية الغربية اليوم.

لقد تبيّن لنا – في الأخير– وممّا ذكر أعلاه أنّ :

– الباحث في الموروث اللساني النّصي العربي ينطلق من ثلاثة مصادر هي: النّحو، النّقد والبلاغة، علم الأصول.

– برهن التراثيون عن الخلفية الإبستيمولوجية لهذا الدّرس اللساني الحديث في كتاباتهم من خلال نظرتهم الشّاملة المتكاملة للخطاب والوعي التّام بخصائصه.

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

– تأكّد أنّ غياب اللسانيات التداولية بمفهومها الاستعمالي الإجرائي في التراث العربي القديم إنّما هو غياب مصطلح فحسب، أمّا من حيث التفكير والممارسة – في بعض الجوانب – فهو مجسّد بشكل واضح وجليّ في أعمال علمائنا أمثال: ابن جنّي، الجاحظ، الجرجاني، ابن طباطبا، السّكاكي، القرطاجنّي ...الخ).

–لقد كان الدّرس السّياقي حاضرا في الدّرس العربي القديم كإجراء وكتنظير لكن بمصطلحات أخرى كالمقام، غير الذي أقرّه التداوليون في نظريتهم الذين اعتبروا المقام وجها من وجهي السّياق .

– لم يهتد العرب القدامى إلى إنتاج نظريات لسانية مستقلّة، بل كانت أفكارهم وأعمالهم وسيلة يقعدون بها لعلوم أخرى لا غاية يقعدون لها، وأبرز مثال على ذلك هو المنهج التّداولي الذي لم يكن عند القدامى منهجا شرعيا لتحليل النّصوص والخطابات، بيد أنّهم تفطنّوا للجانب النفعي الاستعمالي للغة وأكّدوا عليه في مؤلفاتهم .

– تجلّت بعض مباحث التداولية الغربية في تفكير التراثيين خاصّة عند علماء البلاغة والنّقد وكذا علماء التفسير ومن هذه المباحث: السّياق، نظرية أفعال الكلام، الحجاج، إذ تعدّ إشاراتهم غنّية بالقيّم التّداولية، لكنّها لم ترق لأن تكون نظريات ناضجة تضاهي النضج الذي هي عليه اليوم عند الغربيين.

في الختام ومع تأكيد تجلّي المنجز اللساني في تفكير التراثيين، كان جدير بالباحثين العرب – إذاً – الانطلاق من التراث لاكتشاف نظريات لسانية سابقة للنظريات الغربية، خاصّة وأنّ المكتبة العربية التراثية تزخر بفكر قيّم ورصيد معرفي معتبر وكفيل بإنتاج أحدث النظريات اللغوية ذات الطابع العلمي والعالمي.

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

5. الهوامش:

---

[1] حافظ اسماعيلي علوي ، منتصر أمين عبد الرحيم : **التداوليات وتحليل الخطاب** ،2014، ط1، عمان، الأدرن ، دار كنوز المعرفة العلمية ، ص11

[2] J.M.Adam **; la linguistique textuelle des genrs du discours aux textes** ; Edition nathan ;Paris ; 1999 ; p66

[3] محمود طلحة: **تداولية الخطاب السّردي دراسة تحليلية في وحي القلم** ، 2012 ، ط1، إربد ، الأردن ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، ص122

[4] مسعود صحراوي: **التداولية عند العلماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي** ،2003 ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، دار الطليعة ، ص115.

[5] المرجع نفسه ، ص15.

[6] السيوطي : **الاقتراح في علم أصول النّحو** ، تح: محمد حسن اسماعيل الشافعي ، 1998، ط1، بيروت ، لبنان، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية، ص118.

[7] المرجع نفسه ، ص118.

[8] حازم القرطاجني : **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** ، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، 1986، ط3، بيروت، لبنان ، دار الغرب الإسلامي، ص344.

[9] ابن جني أبو الفتح عثمان: **الخصائص**، تح : محمد علي نجار ، 1986، ط3، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج1، ص532.

[10] جمال الحضري: **المقاييس الأسلوبية في الدّراسات القرآنية**، 2010، ط1 ، بيروت ، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ص209

[11] طه عبد الرحمن : **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي** ،1998، ط1، الدار البيضاء ، المغرب ، المركز الثقافي العربي، ص 226

[12] المرجع نفسه ، ص65

[13] استراتيجيات الخطاب: الاستارتيجية التضامنية، الاستراتيجية التوجيهية، الاستراتيجية التلميحية، الاستراتيجية الإقناعية.

[14] آمال يوسف المغامسي: **الحجاج في الحديث النبوي – دراسة تداولية** – ،2016 ، ط1، تونس، الدار المتوسطية للنشر، ص59.

[15] الجاحظ: **البيان والتبيين**، تح: عبد السلام محمد هارون ، 1998، ط7، القاهرة ، مصر، مكتبة الخانجي، ج1، ص79

[16] المصدر نفسه ، ص 63

[17] ا لجاحظ ، المصدر نفسه ، ص75.

[18] محمد العمري: **البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها**، 1999،ط1، المغرب ، أفريقيا الشرق، ص293

[19] أبو الحسن إسحاق بن وهب: **البرهان في وجوه البيان**، تح: حفني محمّد شرف، 1969 ، د.ط ، مصر، مكتبة الشّباب، مطبعة الرّسالة ،ص176.

[20] المصدر نفسه، ص176.

[21] حازم القرطاجنّي: **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، 1966، د.ط، تونس، دار الكتب الشّرقية، ، ص63

[22] المصدر نفسه، ص64.

[23] الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد) : **دلائل الإعجاز**، تح: الخفاجي محمد عبد المنعم، 2004، ط1 ، بيروت ، لبنان ، دار الجيل ، ص149.

[24] طه عبد الرحمان: **اللّسان والميزان أو التّكوثر العقلي** ، ص313.

[25] فان دايك: **النّص والسّياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي**، تر: عبد القادر قنيني، 2000، د.ط ، المغرب، إفريقيا الشرق ، ص227.

[26] ابن رشد الأندلسي: **الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة** ، تح: محمد عابد الجابري ، 2001، ط1، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، ص116.

[27] ينظر: أوستين: **نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام** ، تر: عبد القادر قينيني ، 1991، ط1، المغرب، دار إفريقيا الشرق ، ص53.

[28] السكاكي أبو يعقوب يوسف : **مفتاح العلوم** ، ضبط وتعليق: نعيم زرزور ، 1987، ط2، بيروت، لبنان دار الكتب العلمية ، ص254.

[29] المبرّد أبو العباس: **المقتضب**، تح: عبد الخالق عضيمة،د.ت،د.ط، بيروت، لبنان، عالم الكتب، ص311.

[30] جورج مونان، تر: الطيب بكوش ، **مفاتيح الألسنية** ، 1994، ط1، سوسة ، تونس ، منشورات سعيدان، ص83 .

[31] A.J.Greimas ; J.Courtes ; **Sémiotique** ; Dictionnaire raisonné de la théorie du langage ;Hachette ; Paris ;1979, pp96-97.

المجلد: (15)	العدد:(01)	السنة: 2023	صفحات المقال: 160 –178	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

[32] فان دايك : **النّص والسّياق**، تر: عبد القادر قينيني ، ص118

[33] الجاحظ : **البيان والتبيين** ، ص136.

[34] ابن رّشيق : **العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده** ، تح : محي الدين عبد الحميد ، 1981، بيروت ، دار الجيل ، لبنان ، م5، ص928.

[35] أبو هلال العسكري: **الصّناعتين**، تح: علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، 1952، ط10، سوريا، دار إحياء الكتب العربية ، ص135

[36] ابن قيّم الجوزية: **بدائع الفوائد**، تح: علي بن محمد العمران، 1995م، ط2، السعودية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع مج4، ص13 ،14.

6 . قائمة المصادر والمراجع:

- ✓ أبو الحسن إسحاق بن وهب: البرهان في وجوه البيان، تحق: حفني محمّد شرف، مكتبة الشّباب، مطبعة الرّسالة، (دط)، مصر،1969م.
- ✓ أبو العباس المبرّد، المقتضب، تح: عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، د.ط، بيروت، لبنان، د.ت.
- ✓ أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ،ط10، سوريا، 1952 م
- ✓ أبو يعقوب يوسف السكاكي، مفتاح العلوم ، ضبط وتعليق: نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية، ط2 ، بيروت، لبنان، 1987م.
- ✓ أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة ، كيف ننجز الأشياء بالكلام ، تر: عبد القادر قينيني، دار إفريقيا الشرق، ط1، المغرب، 1991م.
- ✓ آمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي – دراسة تداولية –، الدار المتوسطية للنشر، ط1، تونس، 2016.
- ✓ ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي نجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، مصر، 1986م .

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

- ✓ ابن رشد الأندلسي ، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة ، تح: محمد عابد الجابري ، مركز دراسات الوحدة العربية ،ط1، بيروت، لبنان،2001م.
- ✓ ابن رّشيق ، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدّين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط1، بيروت، لبنان، م5، 1981م.
- ✓ ابن قيّم الجوزية، بدائع الفوائد، تح: علي بن محمد العمران ، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع ،ط2، السعودية، 1995م .
- ✓ الجاحظ * البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، مصر، 1998م
- ✓ الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد): دلائل الإعجاز، تحق: الخفاجي محمد عبد المنعم، دار الجيل، ط1،بيروت، لبنان، 2004م
- ✓ جمال الحضري، المقاييس الأسلوبية في الدّراسات القرآنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،ط1، بيروت ،لبنان، 2010 م.
- ✓ جورج مونان، تر: الطيب بكوش، مفاتيح الألسنية، ط1، منشورات سعيدان، سوسة، تونس، 1994م.
- ✓ حافظ اسماعيلي علوي، منتصر أمين عبد الرحيم، التداوليات وتحليل الخطاب، دار كنوز المعرفة العلمية ، ط1، عمان، الأردن، 2014م.
- ✓ حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي ، ط3،بيروت ، لبنان ، 1986م .
- ✓ السيوطي، الاقتراح في علم أصول النّحو، تح: محمد حسن اسماعيل الشافعي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1998م.
- ✓ طه عبد الرحمان: اللّسان والميزان، والتّكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدّار البيضاء، المغرب، 1998م.

المجلد: (15) | العدد:(01) | السنة: 2023 | صفحات المقال: 160 –178 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

- ✓ فان دايك، النّص والسّياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، د.ط، المغرب، 2000.
- ✓ محمد العمري: البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999م.
- ✓ محمود طلحة، تداولية الخطاب السّردي دراسة تحليلية في وحي القلم، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، إربد، الأردن، 2012.
- ✓ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، ط1، بيروت، لبنان، 2003م.

المراجع باللغة الأجنبية:

- A.J.Greimas ; J.Courtes ; Sémiotique ; Dictionnaire raisonné de la théorie du langage ;Hachette ; Paris ;1979,

- J.M.Adam ; la linguistique textuelle des genrs du discours aux textes ; Edition nathan ;Paris ; 1999 .